بلوغ المرام في فهم أحكام آيات السلام

الدكتور حسن ناصر سرار

جامعة صنعاء – اليمن

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الأمين، رسول الرحمة والسلام للعالمين.

تؤكد الديانات السماوية على دعوة السلام، فهي دعوة القرآن: **{وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}**[1]، ودعوة الإنجيل [وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة]. بل إن الإسلام كله مبني على التسليم والانقياد والخضوع التام لإرادة الخالق -عز وجل-، وعلى الحب والمؤاخاة والسلام والتكافل بين المسلمين، وعلى أساس التعايش السلمي في علاقات المسلمين بغيرهم. ونحن في بلاد المسلمين - وللأسف - شاعت في الأزمنة الأخيرة بين أوساط بعض الشباب ظواهرْ مثل: التكفير والتفجير، والشجار والانتحار، نتيجة لبعض الفتاوى من بعض المتحمسين للتغيير، وليس في ذلك حكمة أو فقه لهذا الدين وجوهره. لذلك، ولكثرة العيون الدامعة، والقلوب المتفطرة على ما يحدث للمسلمين اليوم في بلدانهم وفي غير أوطانهم.

جاء هذا البحث إضافة إلى دعوات العلماء والمثقفين ودعاة السلام والمنظمات والجماعات الباحثة عن مخارج من هذه الأزمات التي يعيشها المسلمون. وهو دعوة لإعادة قراءة القرآن القراءة الصحيحة المبنية على الفهم الصحيح والشامل لجوهر هذا الدين.

وهو صرخة ألم في وجه المستبدلين للتكفير والتفجير بدلاً عن الدعوة بالحسنى وللاختلاف بدلاً عن الائتلاف، ليحيي في قلوبهم الأمل تجاه حياتهم، وحياة أسرهم، وحياة الآخرين، وخدمة هذا الدين بالوسائل المثلى. وقد اعتمدت على كتب التفسير المعاصرة في محاولاتي لفهم

1- الأنفال: 61.

آيات السلام لقربها إلى معالجات الأزمات المعاصرة، وإلى فكر وأذهان مفتعلي أزمة العصر. وقد قسمت البحث إلى مبحثين تضمنا ستة مطالب.

المبحث الأول: السلام بين المسلمين.

المطلب الأول: رؤية المفسرين لآية السلام*

افتتح هذا المبحث بالآية القرآنية العظيمة: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ }**[1]، التي يرى فيها بعض المفسرين أن السلم المراد في الآية: الإسلام، يقول العلامة السعدي: «هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا (في السلم كافة)، أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً»[2]، ومثل ذلك تقريباً ذهب مختصرو تفسير ابن كثير عندما قالوا: «أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع

---

* جاء في لسان العرب: سلم: السلام والسلامة، والسلام: اسم من أسماء الله سبحانه لسلامته من النقص والعيب والفناء. انظر: لسان العرب المحيط: محمد بن المكرم المشهور بابن منظور، دار الجبل- بيروت، 190/3.

وفي المعجم الوسيط: سالمه: صالحه، والسِلْمُ: الإسلام والصلح، وهو خلاف الحرب، انظر: المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وآخرون، دار الأمواج – بيروت، الطبعة الثانية، 1990م، ص. 446.

وذكر ابن عاشور في تفسيره: والسَّلم بفتح السين وكسرها مع سكون اللام حقيقته الصلح وترك الحرب، قال عباس بن مرداس:

السلم تأخذ منها ما رضيت به// والحرب تكفيك من أنفاسها جزع

واشتقاق السلم (بكسر السين) من السلامة وهي النجاة من ألم أو ضر أو عناد، وتقول العرب: أسلمٌ أم حرب، أي أأنت مسالم أم محارب. انظر: التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور: محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ- بيروت، الطبعة الأولى، 2000م، 259/12-260.

1- البقرة: 108.

2- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار الحديث، القاهرة طبعة 2002م، ص. 83.

أوامره، وترك جميع زواجره، وادخلوا في السلم معنى: الإسلام، والطاعة، والموادعة، وجميع أعمال ووجوه البر»[1].

ومثل ذلك قال الجزائري: «وينادي الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين آمراً إياهم بالدخول في الإسلام دخولاً شمولياً بحيث لا يتخيرون بين شرائعه وأحكامه ما وافق مصالحهم وأهواءهم قبلوه وعملوا به، وما لم يوافق ردوه، أو تركوه وأهملوه»[2].

ويرى آخرون أن السلم في الآية يراد منه معناه اللغوي الظاهر والواضح وهو: المسالمة بين المسلمين، ونبذ العداوات والحروب والاختلافات «ويجوز أن يكون المراد من السلم هنا المعنى الحقيقي ويراد به السلم بين المسلمين يأمرهم الله تعالى بعد أن اتصفوا بالإيمان بألاّ يكون بعضهم حرباً لبعض كما كانوا عليه في الجاهلية، وبتناسي ما كان بين قبائلهم من العداوات، ومناسبة ذكر هذا عقب ما تقدم أنهم لما أمروا بذكر الله كذكرهم آبائهم وكانوا يذكرون في موسم الحج تراثهم (مناقبهم) ويفخرون فخراً قد يفضي إلى الحمية، أمروا عقب ذلك بالدخول في السلم، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع {**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**} فتكون الآية تكملة للأحكام المتعلقة بإصلاح أحوال العرب، وبها تكون الآية أصلاً في كون السلم أصلاً للإسلام وهو رفع التهارج (التقاتل)»[3]. ولعل ما سبق هو المعنى الواضح للسلم في الآية الآنفة الذكر ولا يوجد ما يمنع من الجمع بين المعنيين في ذلك، لكن الغريب ما ذهب إليه الدكتور الزحيلي من تأويل للآية بقوله: «يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب انقادوا إلى الله تعالى في كل شيء، وادخلوا في الإسلام

1- صلاح بن محمد عرفات وآخرون، اليسير في اختصار تفسير ابن كثير، دار الهداة، جدة، الطبعة الأولى 1426هـ، ص. 22.

2- أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، بدون، الطبعة الأولى، 1993م.

3- تفسير ابن عاشور، 261/2، ص. 262.

كله، وخذوا الإسلام بجملته ولا تخلطوا به غيره»[1]. وقد جزم القاسمي بمعنى السلم في الآية بالصلح عندما قال: «وعُلِمَ اسم السلم على الصلح وترك الحرب»[2].

وممن جمع بين معنى المسالمة والإسلام الشيخ محمد رشيد رضا بأسلوب تكاملي جميل حيث قال: «السلم: المسالة والانقياد، والتسليم، فيطلق على الصلح والسلم، وعلى دين الإسلام، وقد فسّره بعض المفسرين بالصلح، وبعضهم بالإسلام. و(كافة) تفيد وجوب أخذ الإسلام بجملته، وأقول أن أساسها الاستسلام لأمر الله والإخلاص له، ومن أصولها الوفاق والمسالمة بين الناس، وترك الحروب والقتال بين المهتدين به»[3]. وتأمل قوله (بين الناس)، وبين المهتدين به) في توجيه صريح ودعوة واضحة إلى المسالمة العامة التي تشمل الناس كافة، وحري بالمؤمنين أيضاً عدم الاقتتال والاحتراب وسفك الدماء بينهم لأنهم أهل لذلك فهم المهتدون به.

السلام في قلوب المسلمين: السلام ثمرة من الثمار العظيمة التي يتذوق حلاوتها ويجد أثرها الطيب الإنسان المسلم، تزداد بازدياد تمسكه بإسلامه، وحبه لإيمانه، فكلما ارتفع منسوب الإيمان في قلب المسلم ازداد تمسكه بالسلم والسلام وسعى لإشاعته بين الناس. وليس ذلك بغريب فهو ينتمي إلى دين اسمه "الإسلام" ويعبد رباً اسمه "السلام"[4]، ويسعى إلى دار اسمها "دار السلام"[5]. وهناك عدة عوامل لإفاضة وإشاعة السلام في قلوب المؤمنين:

1- وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر- بيروت - الطبعة الأولى، 1991، 235/1.

2- محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، دار الفكر- بيروت - الطبعة الثانية 1978، 173/2.

3- محمد رشيد رضا، مختصر تفسير المنار، تعليق: محمد كنعان، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1984م، 170/1.

4- إشارة إلى قوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الحشر: 23].

5- إشارة إلى قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [يونس: 25]

الإيمان بالله: إن الصلة المباشرة بين المسلم وربه تجعل منه فرداً يرتكن إلى القوة العظيمة الحاضرة فتكسبه السكينة والأمان والسلام. فلا يتحكم في هذه السكينة وهذا السلام كاهن ولا قسيس ولا تمنعها عنه قوة في الأرض ولا سلطان. فهو (المسلم) قريب من الله **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}**[1]. فينتج عن هذه الاستجابة الأنس والطمأنينة والسلام **{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}**[2]. ويحتاج قلب المسلم حتى يفيض منه السلام إلى «صحة تصوره لله ربه، ونصاعة هذا التصور وبساطته. إنه إله واحد يتجه إليه المسلم وجهة واحدة يستقر عليها قلبه فلا تتفرق به السبل، ولا تتعدد به القبل، ولا يطارده إله من هنا وإله من هناك. وهو إله قوي قادر عزيز قاهر، فإذا اتجه إليه المسلم فقد اتجه إلى القوة الحقة الوحيدة في هذا الوجود، وقد أمن كل قوة زائفة واطمأن واستراح. وهو إله عادل حكيم، فقوته وقدرته ضمان من الظلم، وضمان من الهوى، وضمان من البخس، ومن ثم يأوي المسلم إلى ركن شديد ينال فيه العدل والرعاية والأمان. - وهو رب رحيم ودود منعم وهاب غافر الذنب وقابل التوب، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، فالمسلم في كنفه آمن آنس، سالم غانم وهكذا يمضي المسلم مع صفات ربه التي يعرفه بها الإسلام فيجد في كل صفة ما يؤنس قلبه، وما يطمئن روحه، وما يضمن معه الحماية والوقاية والعطف والرحمة والعزة والمنعة والاستقرار والسلام»[3]. كذلك يحتاج هذا القلب كي يفيض ويشع منه السلام إلى صحة تصوره لعلاقته بخالقه وبخلقه، وبالكون والحياة، فهو ضمن منظومة حياة متكاملة، وهو في مهرجان إلهي عظيم ممتد من السماوات وإلى الأرض. فهو مدعو للتعاطف والتجانس والتناغم والتآنس مع كل المخلوقات ومع كل الموجودات فيألف بهم ويأتلف لهم، وهذه هي عقيدة

1- البقرة: 186.

2- الرعد: 28.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة الواحدة والثلاثون، 2002م، 207/1.

المسلم فهي «عقيدة جميلة فوق أنها عقدية كريمة، عقيدة تسكب في روحه السلام، وتطلقه يعانق الوجود كله، ويعانق كل موجود، وتشيع من حوله الأمن والرفق والحب والسلام»[1].

1- اليوم الآخر: إن الإيمان باليوم الآخر يلقي بتبعات ومسؤوليات عظام على صاحبه، فهو (المسلم) لا يرى نفسه في هذه الدنيا حراً طليقاً فيعبث ويظلم ويقتل كيفما يريد ومتى ما أراد، فهو مسؤول عن سعادة نفسه وغيره، وسلامة نفسه وغيره. إن بالإيمان باليوم الآخر إنما يجدد رقابة الله عليه، وأنه محاسب أمام الله عن حرمات الناس وحقوقهم ودمائهم وأعراضهم حتى وإن فلت من سلطة السلطان أو القانون في الدنيا فينتج عن ذلك حياة كلها سلام «والاعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساس في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه، ونفي القلق والسخط والقنوط، إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض، والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة، إن الحساب الختامي هناك، والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب، فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق جزاءه، ولا قلق على الأجر إذا لم يوف في هذه العاجلة بمقاييس الناس فسوف يوفاه بميزان الله، ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ في الرحلة القصيرة على غير ما يريد؛ فالعدل لا بد واقع، وما الله يريد ظلماً للعباد.

والاعتقاد بالآخرة حاجزٌ كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات بلا تحرج ولا حياء، فهناك الآخرة فيها عطاء، وفيها غناء، وفيها عوض عما يفوت. وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة»[2].

2- القدر: يؤمن المسلم إنه إنما يحيا ويعيش وفق أقدار الله سبحانه وتعالى فلا يطلب الرزق أو الجاه اعتداءً أو اغتصاباً فيأمن على سلامة نفسه، وسلامة مجتمعه، وسلامة سلطانه معتقداً بما يردده صباح مساء **{قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**[3]. فيسعد ويسر بما

1- المرجع السابق، 208/1.

2- في ظلال القرآن، 208/1.

3- آل عمران: 26.

قدره الله عليه، ويرضى ويحمد ربه على ما هو عليه، فلا يأس ولا قنوط، ولا كراهة ولا إكراه، ولا يسعى أو يتمنى زوال نعمة الغير أو سعادتهم أو حياتهم **{وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}**[1]. يتذكر كل ذلك فيفيض عليه وعلى من حوله السلام والأمان والاطمئنان «وشعور المؤمن بأنه يمضي مع قدر الله، في طاعة الله، لتحقيق إرادة الله وما يسكبه هذا الشعور في روحه من الطمأنينة والسلام والاستقرار»[2].

إذا لا جزع، ولا اعتداء، ولا تدمير، ولا قتل، ولا انتحار مع الإيمان والاعتقاد بالحياة وفق أقدار الله ولأجلها. «والمضي في الطريق بلا حيرة ولا قلق ولا سخط على العقبات والمشاق، وبلا قنوط من عون الله ومدده، وبلا خوف من ضلال القصد أو ضياع الجزاء، ومن ثم يحس بالسلام في روحه حتى وهو يقاتل أعداء الله وأعداءه فهو إنما يقاتل لله، وفي سبيل الله ولإعلاء كلمة الله ولا يقاتل لجاه أو مغنم أو نزوة أو عرض ما من أعراض هذه الحياة»[3].

3- العبادة: وهو (المسلم) حينما يجعل كل حياته عبادة لله تعالى، تنفيذاً لتوصيف الله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[4]، فهو يتعبد الله بأقواله، ويتعبد الله بأفعاله، في مسجده، ومكتبه، وبيته، ووظيفته، ومزرعته، وسفره، وجهاده، ومرضه، فلمَ إذاً يتكبر على الناس وهو في عبادة؟ ولمَ يطغى بماله وهو يعلم أنه في عبادة؟ ولمَ يظلم غيره وهو يعلم أنه في عبادة؟ ثم ولماذا يطغى ويظلم بل ويكفر غيره وهو يعلم أنهم في عبادة الله تعالى لمجرد أنهم ارتكبوا إثماً أو خطيئة أو لأنهم خالفوه في الفكرة أو الوسيلة؟ ثم كيف له أن يحكم على من خالفه بالقتل؛ بل ويسعى إلى تنفيذه؟!! رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية عندما أبلغنا جميعاً أن العبادة: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة».

1- البقرة: 216.

2- في ظلال القرآن، 208/1.

3- في ظلال القرآن، 208/1.

4- الأنعام: 162.

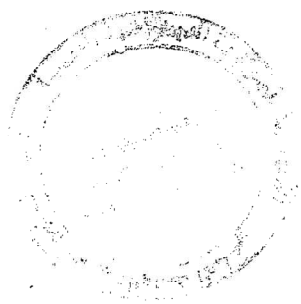

«ومعرفة المؤمن بأن غاية الوجود الإنساني هي العبادة، وأنه مخلوق ليعبد الله من شأنها – ولا شك – أنها ترفعه إلى هذا الأفق الوضيء، ترفع شعوره وضميره، وترفع نشاطه وعمله، وتنظف وسائله وأدواته، فهو يريد العبادة بنشاطه وعمله، وهو يريد العبادة بكسبه وإنفاقه، وهو يريد العبادة بالخلافة في الأرض وتحقيق منهج الله فيها، فأولى به ألاّ يغدر ولا يفجر، وأولى به ألاّ يغش ولا يخدع، وأولى به ألا يطغى ولا يتجبر، وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة ولا وسيلة خسيسة، وأولى به كذلك ألا يستعجل المراحل، وألا يعتسف الطريق، وألا يركب الصعب من الأمور. فهو بالغ هدفه من العبادة بالنية الخالصة والعمل الدائب في حدود الطاقة»[1].

وأختتم هذه المبحث بتعليق على الآية العظيمة التي بها افتتحناه، تاركاً لقلم سيد قطب فسحة التعليق عليها: «هذه كلها بعض معاني السلم التي تشير إليه الآية وتدعو الذين آمنوا للدخول فيه كافة، ليسلموا أنفسهم كلها لله، فلا يعود لهم منها شيء، ولا يعود لنفوسهم من ذاتها حظ، إنما تعود كلها لله طواعية وفي انقياد وفي تسليم. ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الحيرة، وكيف يعربد القلق في النفوس التي لا تطمئن بالإيمان في المجتمعات التي لا تعرف الإسلام...» [2].

المطلب الثاني: المسلمون أولى بالسلم والسلام فيما بينهم:

1- **المسلم**: الإسلام منح المسلم ضمانات تكفل له أن يعيش في أمن وسلام: أمّنه من كل اعتداء، فهو يشعر أنه يعيش في وسط الجميع (أفراد أو حكام) يحبه ولا يعاديه، ويحرص على نفسه وماله وعرضه؛ **{كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله}**[3]، **{لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه}**[4].

1- في ظلال القرآن، 208/1.

2- في ظلال القرآن، 210/1.

3- أخرجه الستة إلا النسائي.

4- رواه الخمسة إلا أبا داود.

—حماه من السخرية منه أو التجسس عليه أو اغتيابه أو الحكم عليه بالظن {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}[1]. يقول سيد قطب معلقاً على الآية الأولى: «إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدي القرآن مجتمع له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس، وهي من كرامة المجموع، ولمز أي فرد هو لمز لذات النفس.

وفي التعبير إيحاء خفي بأن القيمة الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية التي يوزن بها الناس، فهناك قيم أخرى قد تكون خافية عليهم يعلمها الله ويزن بها العباد. وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير، والرجل القوي من الرجل الضعيف، والرجل السوي من الرجل المؤوف، وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخادم، وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم، وذو العصبة من اليتيم، وقد تسخر الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز، والمعتدلة من المشوهة، والغنية من الفقيرة، ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين»[2].

ويعلق ابن عاشور على الآية الثانية بقوله: «ففي قوله تعالى: {اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ}[3] تأديب عظيم يبطل ما كان فاشياً في الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة، وأن الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة، والمكائد والاغتيالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال

1- الحجرات: 11-12.

2- في ظلال القرآن، 6/ 44 33

3- الحجرات: 12.

حذراً من اعتداء مظنون ظناً باطلاً، وما نجمت العقائد الضالة والمذاهب الباطلة إلا من الظنون الكاذبة»[1].

-كلفه بالحفاظ على نفسه، وعدم الاعتداء عليها، أو التخلص منها، قال تعالى: **{وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}**[2]، ويقول تعالى: **{وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً}**[3]، وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: **{ومن تردى من جبل وقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً}**. يا الله كيف هو الجزاء من جنس العمل!! وما السيارة المفخخة، والحزام الناسف، والبندقية، وسائر أنواع الأسلحة البيضاء والنارية إلا جزءاً من الحديد والعياذ بالله من ذلك.

وهذه فقط أمثلة ذكرناها من ضمانات أكدها الإسلام وأمر بها حرصاً على سلامة الفرد وإدخال السكينة إلى نفسه والاطمئنان إلى روحه «وإن الإسلام ليوفر أسباب السلام كلها في قرارة الضمير، وشعاره (لا سلام لعالم ضمير الفرد فيه لا يستمتع بالسلام)»[4].

2- الأسرة: الأسرة أول وحدة اجتماعية يتدرب فيها الإنسان على ممارسة حياته وعلاقاته العامة مع المجتمع «فالإسلام يجعل العطف على الوالدين وبرهما فريضة مقدسة، وفوق ذلك فإن هذا البر وذاك العطف بمثابة تدريب للإنسان على كيفية اكتساب فضيلة التعايش في أمن وسلام مع الناس جميعاً»[5]. وكم هي الدراسات الكثيرة التي ترجع أسباب ارتكاب الجريمة، أو مخاصمة الغير إلى اضطراب الأسرة، وعدم الاستقرار النفسي فيها «والفرد الذي لا يستمتع في بيته

1- تفسير ابن عاشور، 209/26.

2- البقرة: 195.

3- النساء: 29.

4- سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، دار الشروق، الطبعة السابعة، 1983م، ص. 66.

5- محمد عبد الحميد أبو زيد، السلام في الإسلام، دار النهضة العربية، 1980م، ص. 33.

بالسلام لن يعرف للسلام قيمة، ولن يتذوق له طعماً، ولن يكون عامل سلام وفي أعصابه معركة، وفي نفسه قلق، وفي روحه اضطراب.

والإسلام يتجه إلى بذر بذور السلام في البيت، في ذات الوقت الذي يتجه إلى الضمير الفردي، وإلى المجتمع الدولي فكلها حلقات متضامنة، وفيما بينها ترابط واتصال»[1]. يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[2]. إنها العواطف والمشاعر للنفوس، والصلة والسكن للأعصاب والراحة والاسترواح للأجسام، والاستقرار والسلام للحياة، والأنس والنداوة للأرواح والقلوب والضمائر ينتج عنها السلام للفرد والأسرة وينعكس على المجتمع كله الذين هم بحاجة إليه «فيدركون حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر، ملبياً لحاجته الفطرية – نفسية، وعقلية وجسدية – بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار، ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودة والرحمة، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد»[3].

3- **المجتمع**: طبيعة المجتمع المسلم السلام: بني المجتمع المسلم على أساس من الحب والأخوة والصفاء في النفوس والقلوب، وذلك بإرشادات وآداب نفسية واجتماعية ينتج عنها إلى جانب ذلك منع إثارة الأحقاد والبغضاء. فهو مجتمع رابطته المتينة عقيدته السمحة التي تذوب فيها الأجناس والأوطان واللغات والألوان. وهو مجتمع شعاره قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}[4].

1- السلام العالمي والإسلام، ص. 67.

2- الروم: 21.

3- في ظلال القرآن، 2763/5.

4- الحجرات: 10.

– وهو مجتمع يضمن بعضه بعضاً في درء الفحش والتفحش، والكبر والخيلاء، واللمز والفخر، والغيبة والتنابز، والرمي بالفسق والفاحشة.

– وهو مجتمع يقوم على التكافل، فالقادر عليه العمل وطلب الرزق، والعاجز له ضمان العيش الكريم، والراغب في العفة والحصانة له أن يبحث عن الزوجة الصالحة.

– وهو مجتمع تكفل فيه حريات الناس وكراماتهم وحرماتهم وأموالهم.

– وهو مجتمع قائم على الشورى والنصح والتعاون، والمساواة والعدل.

– وهو مجتمع لا يخضع البشر فيه للبشر، وإنما يخضع فيه الحاكم والمحكوم لرب البشر.

تحية المجتمع المسلم السلام[1]: يخاطب الله سبحانه وتعالى المجتمع الإسلامي فيقول: **{وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً}**[2].

والتحية هي: «اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين على وجه الإكرام والدعاء، وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها، وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع من السلام ابتداءً ورداً، فأمر الله تعالى المؤمنين أنهم إذا حيوا بأي تحية كانت أن يردوها بأحسن منها لفظاً وبشاشة أو مثلها في ذلك»[3].

آثار التحية في سلام المجتمع:

-لتوثيق علاقات المودة والمحبة والقربى بين أفراد المجتمع المسلم[4].

-لصفاء القلوب والتعارف[5].

1- وهي أن يقول القادم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» أو البعض منها.

2- النساء: 86، وقد جاء في تفسير ابن عاشور: «وحييّ أصله في اللغة دعا له بالحياة كأنّ القائل يقول: حياك الله؛ أي: وهب لك طول الحياة»، 207/4.

3- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص. 179.

4- في ظلال القرآن، 726/2.

5- المرجع نفسه، 726/2.

- لإشاعة السلام في المجتمع[1].
- لكسب الثواب العظيم.
- تسلم صاحبها من القتل {وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[2]، ومن قال لخصمه السلام عليكم فقد أمنه على نفسه.
- «وهي (آية التحية) نسمة رضية في وسط آيات القتال – قبلها وبعدها – لعل المراد منها أن يشار إلى قاعدة الإسلام الأساسية السلام، فالإسلام دين السلام، وهو لا يقاتل إلا لإقرار السلام في الأرض، بمعناه الواسع والشامل؛ السلام الناشئ من استقامة الفطرة على منهج الله»[3].

4- من ظُنَّ به غير الإسلام: قال سبحانه وتعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}[4]. ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري وغيره أنه مرّ رجل من بني سُليم بنفر من أصحاب النبي وهو يسوق غنماً له فسلّم عليهم، فقالوا: ما سلّم علينا إلا ليتعوذ منها، فعمدوا إليه، فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي . وقد ذكرت آثار كثيرة تثبت خطأ بعض الصحابة في العجلة والحكم الخطأ القائم على الظن وعدم التثبت، وقد عاب عليهم الرسول ذلك.

إذاً فالأصل قطع الظن بقول الشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) أو إعلان السلام بتحية الإسلام (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته). يقول سعيد حوى في تفسيره الأساس: «يأمر الله عز وجل في هذا المقطع عباده المؤمنين إذا قاتلوا في سبيله أن يتبينوا إذا

1- التفسير المنير، 184/5.

2- النساء: 94.

3- في ظلال القرآن، 726/2.

4- النساء: 99.

قاتلوا أو قَتَلُوا، وينهاهم إذا أعلن لهم أحد إسلامه أن يرفضوا إعلانه رغبة منهم في تحصيل عرض من الدنيا بقتله ليأخذوا ماله، ووعدهم الله عز وجل مغانم كثيرة يؤتيهم إياها من فضله. ثم ذكرهم بأنهم كانوا في يوم من الأيام يُسِرّون إيمانهم، فإذا وجدوا إنساناً يسر إيمانه بين قومه حتى إذا جاؤوهم أظهر لهم فيكف يقتلونه. ثم جدد لهم الأمر بالتبين والتثبت إذا قاتلوا أو قتّلوا ثم هددهم بأنه يعلم الظواهر والخوافي فلا يخالفوا»[1].

وجوب التثبت والتبيّن: والتبين: «شدة طلب البيان، أي التأمل القوي، حسبما تقتضيه صيغة التفعّل. (فتبينوا)؛ أي: تثبتوا واطلبوا بيان الأمور فلا تعجلوا فتتبعوا الخواطر الخاطفة الخاطئة»[2]. والتبين لحال الإنسان فرداً أو مجموعاً يجب أن يكون مستمراً منذ الوهلة الأولى لمعايشة أو مخاصمة الغير، ولعمري كيف بأولئك الذين يجرأون على تفجير أنفسهم بين مجموعة من المسلمين وهم يعلمون أنهم ينتمون لهذا الدين على سبيل التأكيد لا الظنّ. «إن قضية التبين ينبغي أن تأخذ مداها في أي لحظة أو تخطيط أو تنفيذ، فإذا كان لا بد من قتال فلنتذكر دائماً أنه لا بد من تبين»[3]. وكم هو جميل كلام الفقيه المفسر الزحيلي في هذا الأمر: «ثم أكد الله وجوب التبيين فأمر أن يكونوا على بينة من الأمر الذي يقومون عليه بأدلة ظاهرة وقرائن كافية، وألا يأخذوا بالظن السريع وإنما عليهم التدبر، حتى يظهر الأمر، فإن الحكم بالإيمان يكفي فيه مجرد ظاهر الحال، أما القتل فلا بد من غلبة الظن الراجح على البقاء على حال الكفر، وعليكم أن تفعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم، وأن تعتبروا ظاهر الإسلام في الكف عن القتل والقتال»[4]. وإلى هذا الوجوب ذهب كذلك الفقيه الجزائري وهو يفسر الآية بقوله: «وجوب التثبت والتبين في الأمور التي يترتب على الخطأ فيها ضررٌ بالغ»[5].

1- سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام، الطبعة الأولى، 1985م، ص. 1154.

2- تفسير ابن عاشور، 225/4.

3- الأساس في التفسير، ص. 1157.

4- التفسير المنير، 217/5.

5- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، 442/1.

ونختم الحديث حول هذه الآية ببيان هدي الإسلام وحكمته البالغة في وجوب التثبت والتبين، وبيان الهدف السامي الذي لأجله يجاهد المجاهد ويقاتل المقاتل، حتى لا يجعل للشيطان في جهاده نصيباً أو لهواه ومزاجه وفتاوى غيره القائمة على غياب الفهم السليم والشامل للنصوص الصريحة والصحيحة سبيلاً في هذا المجال. «ومن هذه الآية نفهم أن الفارق الرئيس بين قتال المسلمين وقتال غيرهم، أن غير المسلمين يقاتلون من أجل الدنيا متمثله باحتلال الأرض، أو بسوق اقتصادي، أو من أجل مواد خام، أو من أجل استغلال ما، أو من أجل ربح مباشر أو غير مباشر. أما المسلمون فلا يقاتلون إلا من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، وفي سبيل الله، وما يعطيهم الله عز وجل بسبب ذلك من الدنيا فهو منّة وفضل، ولكن ليس غاية ولا هدف، وهذا الذي لا يصل إلى إدراك كنهه ولا على فهمه من لا يعرف آفاق الربانية في النفس البشرية»[1].

المطلب الثالث: السـلام الشـامل

1- الإسلام سلام للمسلمين وللإنسانية جميعاً: قال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}[2]. على غير عادة يفتتح الله النداء في السورة المدنية بقوله (يا أيها الناس) وبذكر اسم الرب في قوله (اتقوا ربكم) وكأنما أراد الله سبحانه وتعالى — وهو أعلم بمراده — أن يخاطب الناس كل الناس بالقواسم المشتركة التي تجمعهم ليضع بين أيديهم مفاهيم وحقائق هي لمنفعة الإنسانية جميعاً لترفرف راية السلام على الجميع. «إن في روح الإسلام من السماحة الإنسانية ما لا يملك منصف أن ينكره أو يراوغ فيه، وهي سماحة مبذولة للمجموعة البشرية كلها لا لجنس فيها، ولا لأتباع عقيدة معينة إنما هي للإنسان بوصفه إنسان.

1- الأساس في التفسير، ص. 1156.

2- النساء: 1.

وعندما يؤدي الإسلام واجبه في هداية البشرية، وينهض بتكاليفه في دفع الظلم والفساد عنها، لا يبقى له سلطة تعسفية على فرد أو قوم، ولا يبقى في صدره إحنة على طبقة أو جنس. وهي روح تمكن له من إقرار السلام في الأرض، ومن تأليف الأجناس والألوان، ومن إشاعة السماحة والود والتراحم بين بني البشر، ومن تنقية جو الحياة من سموم التحاسد الفردي، والتطاحن الطبقي، والتناحر العنصري، كما تمكنه من كف الحروب والمجازر التي تقوم على تلك الأسباب»[1].

ونحن المسلمين يجب علينا إعادة عرض هذا الدين وسماحته ويسره وسلامه للإنسانية بطريقة صحيحة بعيداً عن التشدد، والتفرد، والتميز، وإلغاء الآخر، معتمدين في ذلك على منهج القرآن الذي خاطب الناس جميعاً، وعلى منهج الرسول عليه الصلاة والسلام الذي كان رحمة للعالمين. وما الآية السابقة الذكر إلا أنموذجاً لعرض هذا الدين والفوائد التي يحملها للإنسان، إنها تحمل حقائق الإنسانية للإنسانية فإذا ما تأملناها وعرضناها عرضاً سليماً فإنها كفيلة بإحداث تغييرات هائلة في حياة الناس. وقد قام شهيد القرآن بعرض هذه الحقائق في ظلاله[2]، نوجز البعض منها بأسلوبنا لأهميتها:

-إن هذه الآية تذكر الناس بمصدرهم الذي صدروا عنه وتردهم إلى خالقهم الذي أنشأهم في هذه الأرض.

-إن الناس جاءوا إلى هذا العالم بعد أن لم يكونوا فيه، فمن الذي جاء بهم، إنها إرادة الله حده و لم تكن إرادتهم.

-إن هذه الإرادة جاءت بهم إلى هذا العالم، وخطت لهم طريق الحياة، ومنحتهم القدرة على التعامل معه، فهي وحدها التي تملك لهم كل شيء، وهي وحدها التي تعرف عنهم كل شيء، وهي وحدها التي تدبر أمرهم، وهي وحدها صاحبة الحق في أن ترسم لهم منهج الحياة، وأن تشرع لهم أنظمتهم وقوانينهم، وأن تضع لهم قيمهم وموازينهم.

1- السلام العالمي والإسلام، ص. 177.

2- 573/1، وما بعدها.

- إن هذه الآية تذكر الناس كل الناس أنهم يتصلون في رحم واحدة، ويلتقون في وشيجة واحدة، تنبثق من أصل واحد، وتنتسب إلى نسب واحد. ولو تذكرت الإنسانية هذه الحقيقة لتضاءلت في حسهم كل الفروق الطبقية، التي مزقت وشائج الرحم الواحدة ولكانت كفيلة باستبعاد الصراع العنصري، التي تجرعت منه عبر الأزمنة. ولو تذكرت الإنسانية هذه الحقيقة لعمها السلام من كل جانب.

- إن هذه الآية تذكر الناس جميعاً أن قاعدتهم الأساسية الأسرة الواحدة المكونة من زوجين (آدم وحواء) ولو شاء الله لخلق في النشأة الأولى أسراً كثيرة لا رابط بينها ابتداءً، لكنها مشيئة الله في أن تقوم الأسرة الأولى ليتفرع منها رجالاً كثيراً ونساءً الأمر الذي يحتم على الناس جميعاً التعايش فيما بينهم بسلام وأمان في جو الأسرة الإنسانية الواحدة.

حري بالمسلمين نشر ثقافة السلام بينهم، وحري بهم أيضاً نشر هذه الثقافة على غيرهم، لينعم الجميع بنعمة السلام. «والمسلم حين يستجيب هذه الاستجابة يدخل في عالم كله سلم وكله سلام، عالم كله ثقة واطمئنان، وكله رضاً واستقرار، لا حيرة ولا قلق، ولا شرود ولا ضلال. سلام مع النفس والضمير، سلام مع الفعل والمنطق، سلام مع الناس والأحياء، سلام مع الوجود كله، ومع كل موجود، سلام يرف في حنايا السريرة، وسلام يظلل الحياة والمجتمع، سلام في الأرض وسلام في السماء»[1].

2-**الوسطية والاعتدال** صمام أمان السلام الشامل: قال سبحانه وتعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}**[2]. آية عظمى جاءت لترشد الأمة إلى منهجا الوسطي في وسط سورة البقرة البالغ عدد آياتها (286) آية

وهي شهادة من الله لخيرية هذه الأمة وعدالتها وحرصها على الإتباع الصحيح والسليم لهذا الدين العظيم. «والآية ثناء على المسلمين بأن الله قد ادخر لهم الفضل وجعلهم وسطاً بما هيأ لهم من أسبابه في بيان الشريعة بياناً جعل أذهان أتباعها سالمة من أن تروج عليهم

1- في ظلال القرآن، 207/1.

2- البقرة: 143.

الضلالات التي راجت على الأمم، قال فخر الدين (الرازي): يجوز أن يكونوا وسطاً بمعنى أنهم متوسطون في الدين بين المفرِط والمفرِّط، والغالي والمقصر؛ لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا المسيح ابن الله، ولم يقصروا كما قصرت اليهود فبدلوا الكتب واستخفوا بالرسل»[1].

ويقول صاحب التفسير المنير: «والوسط في الأمور كلها بلا إفراط ولا تفريط في شأن الدين والدنيا، وبلا غلو لديهم في دينهم، ولا تقصير منهم في واجباتهم، فهم ليسوا بالماديين كاليهود والمشركين، ولا بالروحانيين كالنصارى، وإنما جمعوا بين الحقين: حق الجسد وحق الروح، ولم يهملوا جانباً منهما، تمشياً مع الفطرة الإنسانية القائمة أن الإنسان جسد وروح»[2].

مفهوم الوسطية[3]:

- ويقصد بها التوسط والتعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، وعكسها التطرف من طرف الشيء أو الغلو.

- والوسطية تعني العدل كما جاء أحد معاني الآية الكريمة السالفة الذكر، إذ أن الشرط الأساسي للشاهد أن يكون عدلاً، فكيف بأمة يراد منها الشهادة على سائر الأمم، وقد جاء في آية أخرى: **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ}**[4]، ذكر المفسرون أن معنى أوسطهم: أعدلهم. يقول زهير:

هُمُ وسطٌ يمضي الأنام بحكمهم// إذا نزلت أحدى الليالي العظائم

والوسطية تعني الاستقامة، والطريق الوسط: الطريق المستقيم، يقول تعالى: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}**[5]؛ فالمؤمن يدعو الله أن يهديه خط الوسط وهو أقرب الخطوط للوصول إلى الهدف،

1- تفسير ابن عاشور، 19/2.

2- التفسير المنير، 9/2.

3- انظر كتابنا: دروس منهجية في التربية الإسلامية، للباحث، المتفوق للطباعة والنشر، صنعاء، 26.

4- القلم: 28.

5- الفاتحة: 6.

ويدعوه أن يبعده عن الغلو والتطرف الذي وقع فيه اليهود (المغضوب عليهم) والنصارى (الضالين).

والوسطية: الأمان، والقوة، فقوة الشباب تكمن بين مرحلتي ضعف، والشمس في وسط النهار أقوى منها في أوله وآخره.

والوسطية: الخيرية، فرسول الله وسط في قومه، والصلاة الوسطى لها أفضلية.

الغلو في فهم النصوص: إن الآثار المدمرة التي يرتكبها دعاة الاغتيالات والتفجيرات والقتل واستباحة الدماء عظيمة وكبيرة، وهذه كلها مردها أن الجاهلين بأحكام الدين، المتحمسين لإقامة أحكامه وتنفيذها، المبتعدين عن منهج الوسطية (منهج هذا الدين) قد تلقوا إشارات من هنا أو هناك عند سماعهم لذلك الشيخ المنظر، أو الخطيب المفوه، أو المؤلف الذي لم يراع مثل هذه العقول المتصلبة. ولننظر إلى هذا النص ولنتأمل ما الذي سيترتب عليه، يقول سعيد حوى في تفسيره الأساس للآية 92 من سورة النساء: «ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله قال: {**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**}. قال ابن كثير: «ثم إذا وقع شيء من هذا الثلاث فليس لأحد من أحاد الرعية أن يقتله، وأن ذلك للإمام أو نائبه، أقول ولكن هل يأثم من قتل أمثال هؤلاء إثم القاتل؟ حتماً لا، وإنما الإثم في تقدمه على الإمام حتى لا يترتب على ذلك مفسدة، أما من حيث أنه قتل مستحقاً للقتل فهو مأجور إن فعل ذلك بنية صالحة»[1].

المبحث الثاني: السلام مع الآخر

المطلب الأول: الجنوح للسلم: قال تعالى: {**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**}[2]. يقول ابن عاشور: «والجنوح: الميل، وهو مشتق من جناح الطائر، لأن الطائر إذا أراد النزول مال بأحد جناحيه، وهو جناح جانبه الذي ينزل منه. ومعنى

1- الأساس في التفسير، 1146/2.

2- الأنفال: 61.

(وإن جنحوا للسلم) إن مالوا إلى السلم ميل القاصد إليه كما يميل الطائر الجانح، وإنما لم يقل: وإن طلبوا السلم فأجبهم إليهم للتنبيه على أنه لا يسعفهم إلى السلم حتى يعلم أن حالهم حال الراغب»[1]. والجنوح للسلم ليس بمذلة كما يتصوره البعض، لكنه يأتي لضرورة التعايش السلمي بين الشعوب، والحياة القائمة على التوافق والمصالحة وتبادل المنافع وحقن الدماء، ورعاية التجاور. ولذلك فالقرآن الكريم أعطى الدافع الكبير للمسلمين في سورة محمد أن لا مذلة ولا خذلان ولا هوان أمام الأعداد بحكم ما تحلمون من عقدية لا يحملوها هم، وما تحملوه من عزة إيمان، وعلو المكانة. يقول تعالى: **{فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}**[2]. «أنتم الأعلون فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم، أنتم الأعلون اعتقاداً وتصوراً للحياة، وأنتم الأعلون ارتباطاً وصلة بالعلي الأعلى، وأنتم الأعلون منهجاً وهدفاً وغاية، وأنتم الأعلون شعوراً وخلقاً وسلوكاً، ثم أنتم الأعلون قوة ومكاناً ونصرة، فمعكم القوة الكبرى»[3]. حينئذ لا ضرر أن يجنح المسلمون للسلم عند شعورهم بهذا العلو الإيماني الكبير وعند ثقتهم المطلقة أن الله معهم، وحين لا يفزعون للسلم رغبة في الدنيا والحياة، وحين لا تكن هناك مذلة وهوان للمسلمين أو لطائفة منهم، نعم لا بأس أن يجنح المسلمون للسلم لمصلحة ترتجى أو لضرر يدفع «وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لانتفاع يجلب به أو ضر يندفع بسببه فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه، وأن يجيبوا إذا دعوا إليه، قد صالح النبي محمد صلى الله عليه وسلم أهل خيبر، وصالح أكيد رَدُومة، وأهل نجران، وهادن قريشاً لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده»[4].

1- تفسير ابن عاشور، 147/9.

2- محمد: 35.

3- في ظلال القرآن، 3302/6.

4-تفسير ابن عاشور، 149/9.

المطلب الثاني: السلام مع أهل الكتاب والمشركين: أهل الكتاب هم في الأصل أصحاب كتاب سماوي وهذه التسمية تشمل اليهود والنصارى، ولهم في اعتبار الإسلام منزلة خاصة، حيث أباح القرآن مؤاكلتهم ومصاهرتهم، ويطلق هذا المصطلح على اليهود والنصارى خارج بلاد المسلمين، أما الذين يعيشون في ظل سلطان الإسلام فيطلق عليهم أهل الذمة إيماءً بأن لهم ذمة الله وذمة رسوله أي عهد الله وعهد رسوله صلى لله عليه وسلم ألا يؤذوا ولا تهدر حقوقهم أو تخدش حرماتهم.

والسلام مع هذه الطوائف ومجموع البشرية بشكل عام يتطلب منا الرجوع إلى التأصيل الفقهي لهذا الأمر الذي بدأ مع نهاية القرن الأول الهجري وازداد تقعيداً وتأصيلاً في بداية القرن الثاني الهجري عند عامة الفقهاء للمذهبين السني والشيعي والذين توصلوا إلى أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو الحرب وليس التعايش السلمي. «يرى جمهور فقهاء المذاهب السنية والشيعية في عصر الاجتهاد الفقهي في القرن الثاني الهجري إلى أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو الحرب جرياً على أساس تقسيم الدنيا إلى دارين (دار إسلام، دار حرب) وبناءً على ما فهموه من آيات القرآن»[1]. ولست هنا بصدد مناقشة الرأي الفقهي، فالذي يهم في هذا البحث هو محاولة رؤية الموضوع من خلال فهم آيات كتاب الله ومحاولة الجمع بين الآيات (آيات الحرب وآيات السلم).

الجمع بين آيات الحرب وآيات السلم: إن جمهرة الفقهاء الذين ذهبوا إلى القاعدة السالفة الذكر (الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم هو الحرب) بنوا ذلك على نسخ أحكام بعض آيات السلم والمهادنة[2]، بآيات وردت في سورة براءة تأمر المسلمين بقتل جميع المشركين، فهل

1- وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1998م، ص. 30.

2- من هذه الآيات:

- قوله تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [الأنفال: 61].
- قوله تعالى: { حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [محمد: 4].
- قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً} [البقرة: 208].

هناك ناسخ ومنسوخ فعلاً؟ يقول ابن عاشور عند تفسيره للآية {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا}[1]: «فالذين قالوا: إن الضمير (ضمير الغائب في جنحوا) عائد إلى المشركين، قالوا: كان هذا في أول الأمر حين قلة المسلمين، ثم نسخ بآية سورة براءة {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}[2]، ومن قالوا الضمير عائد إلى أهل الكتاب قالوا: هذا حكم باق، والجنوح إلى السلم إما بإعطاء الجزية أو بالموادعة.

والوجه أن يعود الضمير إلى صنفي الكفار من المشركين وأهل الكتاب إذ وقع قبله ذكر الذين كفروا في قوله: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}[3]، فالمشركون من العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام بعد نزول آية براءة، فهي مخصصة العموم الذي في ضمير (جنحوا) أو مبينة إجماله، وليست من النسخ في شيء. قال أبو بكر بن العربي: أما من قال أنها منسوخة بقوله {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ}[4]، فدعوى، فإن شروط النسخ معدومة فيها. وهؤلاء قد انقضى أمرهم، وأما المشركون من غيرهم، والمجوس، وأهل الكتاب، فيجري أمر المهادنة معهم على حسب حال قوة المسلمين ومصالحهم، وأن الجمع بين الآيتين أولى، فإن دعوا إلى السلم قبل منهم، إذا كان فيه مصلحة للمسلمين»[5].

- قوله تعالى: { وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً} [النساء: 94].

- قوله تعالى: { فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً} [النساء: 90].

- قوله تعالى: { لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الممتحنة: 8].

1- الأنفال: 61.

2- التوبة: 5.

3- الأنفال: 55.

4- التوبة: 5.

5- تفسير ابن عاشور، 149/9.

ويستعرض الزحيلي آيات السلام ثم يعلق عليها بقوله: «وهذه الآيات تعود بالحرب إذا نشبت إلى الأصل الطبيعي في العلاقات وهو السلم، ولو كان الأمر هو العكس لما دعي المسلمون إلى التزام جانب السلام إن جنح إليه غيرهم، وأظهروا حسن نواياهم، ولو لم يكن منهم إيمان بالإسلام، وحينئذ فعلى المسلمين قبول السلم بكل ضروبه وأشكاله. وقد قال فيما روى البخاري ومسلم: {**يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية**}، فالرسول ينهى عن الرغبة في الحرب وتمنيها حتى مع العدو، ويسأل الله أن يديم نعمة السلم»[1]. ومن خلال استقراء آيات القرآن، وقواعد وأصول هذا الدين وسماحة ورحمة نبيه أستطيع الجزم غير متطاول ولا متكبر على فقهائنا الأجلاء وجهابذة هذا الدين أن الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلم لا الحرب إلا لدفع العدوان وحماية الدعوة، مثل ذلك مثل القواعد الأصولية الأخرى كالأصل في الأشياء الإباحة، والأصل الخلو من التكاليف، والأصل في الذمة البراءة.

المطلب الثالث: السلام مع المعاهدين والمستأمنين وأهل الذمة

تعريفات:

-**المعاهد**: من له عهد مع المسلمين سواء كان بعقد ذمة، أو هدنة من سلطان، أو أمان من مسلم

-**المستأمن**: الطالب للأمان، وهو الذي يدخل الديار المسلمة وإن كان حربياً لمدة محدودة وليس بنية الإقامة الدائمة، وعقد الأمان يكون بمنحه تأشيرة دخول في الجواز أو إذن إقامة، أو حق لجوء، أو غيرها من الوسائل المعاصرة.

-**الذمي**: هو الذي يقيم بين المسلمين إقامة دائمة بموجب عقد الذمة ويكون ارتباطه بالمسلمين قائم على الوطنية والجنسية.

-**سماحة الإسلام**: يقول سبحانه وتعالى: {**وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ**}[2]. يقول سيد قطب في ظلاله:

1- آثار الحرب في الفقه الإسلامي، 134.

2- التوبة: 6.

«ولقد كانت قمة عالية تلك الإجارة والأمان لهم في دار الإسلام، ولكن قمم الإسلام الصاعدة ما تزال تتراءى قمة وراء قمة، وهذه منها، هذه الحراسة للمشرك عدو الإسلام والمسلمين ممن آذى المسلمين وفتنهم وعاداهم هذه السنين، هذه الحراسة له حتى يبلغ مأمنه خارج حدود الإسلام. إنه منهج الهداية لا منهج الإبادة. والذين يتحدثون عن الجهاد في الإسلام، فيصمونه بأنه كان لإكراه الأفراد على الاعتقاد، والذين يهولهم هذا الاتهام ممن يقفون بالدين موقف الدفاع هؤلاء وهؤلاء في حاجة إلى أن يطلعوا إلى تلك القمة العالية التي يمثلها هذا التوجيه الكريم.

إن هذا الدين إعلام لمن لا يعلمون، وإجارة لمن يستجيرون، حتى من أعدائه الذين شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه»[1]. هذا هو الإسلام، وهذه هي سماحته، وهذا هو فهمنا له، فكيف بأولئك الذين يتفاخرون أمام العالم بقتلهم لمجموعة من المستأمنين – سياح كانوا أم أصحاب عمل ومهن – ويزعمون أنهم إنما يجاهدون في سبيل الله بذلك العمل المشين «أما أسوأ ما يقوم به هؤلاء المتطرفون اليوم فهو الاعتداء الآثم على من يدخل بلاد المسلمين من الغربيين سياح وعاملين وغيرهم، رغم أن هؤلاء يدخلون في أمان المسلمين بإجماع جميع الفقهاء حتى الذين يرون أن العلاقة مع بلدان هؤلاء هي علاقة حرب»[2].

من لهم الحق في منح الأمان والذمة: هو حق ثابت لأي مسلم رجل أو امرأة، فقد ورد في البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقر أمان أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها لأحد المشركين، وقال: {**قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ**}. ويكون ذلك عند إجارة آحاد الناس أما إجارة جهة، أو أهل بلد، أو فئة، أو منظمة فلا يكون ذلك إلا للقائم على أمر المسلمين منعاً للفوضى وحرصاً على مصلحة العباد والبلاد. وهذه إشارة أخرى لسماحة هذا الدين ومنح أتباعه فرص تأمين الآخرين وهي «صفعة قوية لكل من أراد أن يشكك في هذا

1- في ظلال القرآن، 1602/3.

2- اليمن وظاهرة الإرهاب، مركز البحوث والمعلومات (وكالة الأنباء اليمنية – سبأ)، الطبعة الأولى، 2003م، ص. 57.

الدين سواء من جهلة المسلمين من أبنائه المنهزمين، أو من أبناء الغرب الذين يبحثون عن أي مثلب، ويتصيدون الأخطاء لاستخدام ذلك في الدس على هذا الدين وتشويه حقائقه.

وفي هذا رد حاسم على كل من يفتئت على حق ولي الأمر والأمة ممن يقوم بقتل أو خطف أي أجنبي مستأمن في الدولة الإسلامية، وهؤلاء إما جهال أو متجاهلين»[1]. وعقد الذمة لا يمنح إلا من القائم على أمر المسلمين وليس لأحد الحق في إبطاله، وحتى الدولة المسلمة لا حق لها في إبطال عقد ذمة قد تم إلا بوسع صاحب الذمة هو أن يفسخ أو ينهي هذا الحق. «ونظر الإسلام إلى هذا العقد نظرة جدية فجعله عهداً لازماً في حق المسلمين، بمعنى: لا يجوز للدولة الإسلامية بأي حال نقض هذا العقد، وبوسع أهل الذمة نقضه في أي وقت. كما يقوم هذا العقد (عقد الذمة) على التأبيد لا على التوقيت، فهم (أهل الذمة) يشاركون المسلمين في الدولة الإسلامية مشاركة مؤبدة إن أرادوا ذلك، بل لا تنتهي بموتهم، حيث يكتسب أولادهم ونساؤهم هذه المشاركة طردياً وبالتبعية»[2].

حقوقهم: يتساوى جميع المواطنين في الدولة الإسلامية بحقوق مشتركة دون أي اعتبار لأي فارق من الفوارق، ولا يستثنى من هذه القاعدة الحقوق والالتزامات الخاصة بالدين حين اختلاف الدين من مواطن لآخر. هذه الحقوق ليست منحة من سلطان أو أمير أو منظمة، يمكن المساومة عليها أو التنازل عن بعضها، إنما هي حقوق مشروعة من الشارع الحكيم، ومن هذه الحقوق على سبيل المثال:

1- حق الحماية: عهد الذمة، أو عقد الأمان يوجبان لصاحبه حق الحماية من الدولة المسلمة.

2- حق توفير مقومات الحياة من طعام وملبس وعلاج.

3- حق العمل والكسب والتنقل، كل حسب كفاءته وقدرته.

4- تولي الوظائف الحكومية، أو المشاركة في إدارة شؤون الدولة، والمشاركة السياسية.

1- خليل محمد الصريمي، حقوق المستأمنين في الإسلام، مطبعة الصريمي، الحديدة، اليمن، 1425هـ، ص. 42

2- سُو رحْمَت هِدَايات: التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم، دار السلام، الطبعة الأولى، 2001م، ص. 323.

5- حرية ممارسة طقوسهم الدينية، وتوفير الوسائل اللازمة لذلك.

من قتل معاهداً: إن قتل أي معاهد أو ذمي أو مستأمن يعد من أكبر الذنوب وأعظمها؛ لأنها تعني نقض ذمة الله وعهده، وذمة الرسول وعهده. ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي قال: {من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عام}. ويتعدى سلام الإسلام الذمي أو المعاهد إلى أن يصل إلى الموالين لهم أو المتحالفين معهم أو المعاهدين لهم، فيصبح معاهد المعاهَد معاهَدا.

مما تقدم نخلص إلى القول إن فكرة السلام في الإسلام فكرة أصيلة عميقة، تتصل اتصالاً وثيقاً بطبيعته. وإن السلام في الإسلام هو القاعدة الثابتة الدائمة، وغيره هو الاستثناء. فالأصل في الإسلام إنشاء العلاقات الدولية المبنية على السلام لا الحرب. وإن السلام الشامل في الإسلام لا يتجزأ، إنما هو وحدة كاملة متكاملة لجميع جوانب الحياة. لأن السلام في الإسلام يحقق للفرد والجماعة الحرية والعدالة. والسلام في الإسلام يبتدئ من ضمير الفرد، وينتقل إلى محيط الأسرة، ثم تتوسع دائرته إلى المجتمع، ويمتد إلى الشعوب والأمم. فالسلام وحده هو المنقذ للحضارة من الدمار وللإنسان من الموت، فهو الموجه لاستخدام الإبداع الفني والتقدم العلمي لرفاهية الإنسان، وهو الحاشد لجمهرة العلماء والخبراء والمهندسين لمزيد من الإنتاج، وهو الكفيل بتسخير الأموال لإعمار الأرض وزراعتها، والقضاء على الأمراض والأوبئة بدلاً من شراء الأسلحة وتصنيعها. والأصل في المسلم هو طلب العافية دائماً وعدم تمني محاربة العدو ومن باب أولى أن لا يتسبب في إيذاء المسلمين ومحاربتهم. وعلى دعاة التكفير والتفجير الاستفادة من قاعدة السلم الذهبية التي أطلقها سيدنا عمر بن الخطاب «قد آثرت سلامة المسلمين»، معللاً بذلك أمره لأمراء الجيش في أفريقيا بوقف المعارك وحثهم على الصلح والسلم.